

البحث الأول

تحديد المفاهيم

العقيدة

ترسل الباحثون في علم الأديان إلى أن لفظ " عقيدة " يطلق ويراد به - في غالب الأحيان - الدلالة على العلاقة التي تربط العابد بمعبوده ، أى أن كلمة "عقيدة" تُستخدم للدلالة على التصديق بوجود معبود، تُحدده مبادئ كل دين على حدة. كما تُطلق على الممارسات والطرق التي يؤديها العابد - وإن اختلفت أشكالها وصورها في كل دين عن الآخر - راجياً بها تطهير نفسه من الدنيا التي تُغضب المعبود ، ومُؤملاً بذلك في الحصول على رضائه ، كى ينال ثوابه ، ويتجنب عقابه .

ويدخل في إطار مفهوم العقيدة - بالإضافة إلى ماسبق - أساليب المعرفة ومناهج العمل التي يتصورها العابد أوامر ونواه صادرة له من المعبود ، سواء كان ذلك في مجال الأخلاق ، أو كانت تلك الأوامر والنواهي داخل الإطار المنظم للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ويرى " شارل جنيبيرت " أن كلمة " عقيدة " تعبر عن تعليم موضوع ، أى عن حكم مقرر بواسطة سلطة لها صفة الأهلية ، بحيث يؤدي هذا الحكم إلى اتخاذ قرار ما ؛ فلقد كانت قرارات مجلس الشيوخ في أثناء الإمبراطورية الرومانية تسمى بالعقائد (Dogmas) ولذلك نجد لوقا الإنجيلي عندما أراد أن يخبرنا بأن القيصر أغسطس قرر عمل إحصاء عام (إصحاح : ٢ ، عدد ١) كتب يقول : " صدرت عقيدة من القيصر أغسطس " يريد : صدر قرار من السلطة العليا .

وعندما أتم يهود تسالونيكي القديس بولس ومستمعيه بعدم إطاعة الأوامر القيصرية لم يستعملوا إلا كلمة " عقيدة " .^٥

ولقد كان من الطبيعي أن يعنى اليهود الذين اكتسبوا صفة الهيلينية ، أعنى الذين يتحدثون اليونانية عادة ، بحكم إقامتهم في بلاد اليونان ، كان طبيعياً أن يعنوا بهذه الكلمة ، التي تحمل معنى السلطة ، أحكام شريعة موسى التي لا يمكن مخالفتها . فقد أعلن القديس بولس في رسالته إلى أهل أفسس^٦ : أن المسيح قد

^٥ أعمال الرسل ١٧ : ٧

^٦ ١٥ : ٢

حطم السياج الذى يقسم الناس إلى شعبين : يهود وأميين ، وأنه بجسده ، أى بموته ، أراد أن يبطل قانون الأحكام "التي هي العقائد" ، أى الأوامر والأحكام المفروضة والواجب اتباعها. كذلك عندما بدأ المسيحيون وضع أسس شريعة "العهد الجديد" في مقابلة البناء المهجور " للعهد القديم " استخدموا بدورهم هذا الاصطلاح الذى يعبر تعبيراً دقيقاً عن كل ما أرادوا أن تعبر عنه خطب السيد المسيح وخطب حواريه . ويجبرنا صاحب " أعمال الرسل " بأن القديس بولس وأصحابه كانوا يأمرن أتباعهم باتباع العقائد التي وضعها الحواريون وقدماء بيت المقدس حيثما ذهبوا⁷

ومن الواضح أنه إذا كانت كلمة " عقيدة " تعنى - في الفقرات التي سردناها - : الحكم ، باعتبار صدوره عن سلطة عليا ، فإننا لم نخرج دائرة الواقع ، فالأحكام التي تعنيها هي إما أحكام مادية ، أو أحكام معنوية أخلاقية. فهي مادية في الشريعة اليهودية ، التي لجأت ، عندما هرمت وشاخت ، إلى مضاعفة الطقوس والاحتياطات الواجب اتخاذها ، ضماناً لعدم اتصاف اليهودى بصفة النجاسة ، وهي معنوية أخلاقية عندما يكون موضوعها شريعة العهد الجديد التي لاتعدو أن تكون قاعدة للحياة العملية ، وأملاً في الخلاص ، أى أملاً في الحصول على مكان في مملكة السماوات..... وعلى هذا النحو تبدو لنا عقائد شريعة العهدين : القديم والجديد - حتى في أدق تفاصيلهما - متخذة طابع أوامر تخولها سلطة إلهية ، ومفروضة فرضاً إلهياً بلا شك ، لكنها أساساً ذات طابع عملي إن العقيدة - أى عقيدة - هي حقيقة معصومة ، وحكم لا يمكن نقضه ، وهي من حيث جوهرها موحى بها ، أوحاها الله مباشرة (إلى أنبيائه)⁸

على أن هذه الكلمة كانت تعنى في المدارس الفلسفية الوثنية معنى أكثر تعقيداً ؛ ففي هذه المدارس كانت كلمة " عقيدة " تطلق على الصيغ التي كانت تكاد تكون معصومة ، والتي كانت تتضمن المعارف الأساسية لكل نظام فلسفى ، فـ " كليمانس Clement " الإسكندري ، هذا العالم المسيحي ، الذى عاش في بداية القرن الثالث ، وفي وسط مشيع بالفلسفة اليونانية ، يعرف تمام المعرفة هذه "العقائد الفلسفية" ، التي هي عبارة عن المقدمات والنتائج لكل نظام من نظم الجدل الهلينية الكبرى . فكثيراً ما كان يقال فيما حول بداية العصر المسيحي : "عقائد فيثاغورس Phythagore" ، أو "عقائد أفلاطون Platon" ، عندما يراد الحديث عن مذهب أحدهما الخاص . لم تعد كلمة " عقيدة " تعنى الأحكام العملية فقط ، فهذه الأحكام العملية قد أصبحت لاتمثل إلا مكاناً ثانوياً لدى مفكرى اليونان ، لايشد عن ذلك فيثاغورس نفسه. فعندما

⁷ (١٦ : ٤)

⁸ (جيبيرت : تطور العقائد ، ترجمة : د. محمد حسنين

كانت تذكر كلمة العقائد في هذه المدارس الفلسفية الوثنية ، كان يراد منها مؤكداً ميتافيزيقية ، لاتعنى فقط عند من يعتقدونها الإيمان ، بمعنى الثقة ، بل تعنى أيضاً ، وعلى الأخص : الإيمان ، بمعنى الاعتقاد .
ولكن أكثر وضوحاً : إن الفلاسفة كانوا يريدون أن يكون الإيمان الذى يبشرون به بين تلاميذهم ، ويريدون منهم أن يعتقدوه ، هو : الإيمان المتعقل والمبرهن عليه عقلياً . أريد أن أقول : الإيمان الذى أثبتته العقل وأكدته . ولقد كتب " كليمانس Clement " الإسكندري ، وهو رغم كونه مسيحياً ، معجب أيضاً بالمقدمات الفلسفية ، كتب في تحديد معنى العقيدة يقول : "إنها نوع من التحصيل العقلي " ، أى أنها مفهوم تدركه النفس بواسطة العقل ، أو على الأصح ، بواسطة الاستدلال العقلي .

فإذا التزم العابد بأوامر المعبود ونواهيته في كل المجالات وصل إلى مرتبة دينية عليا ، حيث يشعر بالارتياح والاطمئنان ، ويستقر في وجدانه أنه أصبح محصناً ضد كل شرور الدنيا ، آمناً من عقاب المعبود في الآخرة ، وهذا منتهى ما يبتغيه أى إنسان - طبقاً لمفهوم المتدين - في الدنيا والآخرة .
ونستخلص من هذا التصور أن العقيدة هي :

- علاقة المعبود بالعابد .

- الانفعال الداخلى ، أو التأثير القلبي الوجداني بالألوهية .

- الالتزام بطاعة المعبود في كل أوامره ونواهيته.⁹

ومن هنا يكون الإعلان عن حالة المؤمن الداخلية ، نتيجة لاستيلاء الإشعاع الإلهي على مشاعره وأحاسيسه ، بحيث يصبح من المؤكد أن العقيدة ليست أمراً اختيارياً ، بل هي نتيجة لظروف وملابسات

⁹ هذه الكلمة كانت تعنى في المدارس الفلسفية الوثنية معنى أكثر تعقيداً ، ففي هذه المدارس كانت كلمة " عقيدة " تطلق على الصيغ التي كانت تكاد تكون معصومة ، والتي كانت تتضمن المعارف الأساسية لكل نظام فلسفي ، فكليمانس " clement " الإسكندري ، هذا العالم المسيحي ، الذى عاش في بداية القرن الثالث ، وفي وسط مشبع بالفلسفة اليونانية ، يعرف تمام المعرفة هذه " العقائد الفلسفية " التي هي عبارة عن المقدمات والنتائج لكل نظام من نظم الجدول المثلثية الكبرى ، فكثيراً ما كان يقال فيما حول بداية العصر المسيحي : " عقائد فيثاغورس Pythore " أو " عقائد أفلاطون Platon " عندما يراد الحديث عن مذهب أحدهما الخاص . لم تعد كلمة " عقيدة " تعنى الأحكام العملية فقط ؛ فهذه الأحكام العملية قد أصبحت لا تمثل إلا مكاناً ثانوياً لدى مفكرى اليونان ، لايشذ عن ذلك فيثاغورس نفسه . فعندما كانت تذكر كلمة العقائد في هذه المدارس الفلسفية الوثنية ، كان يراد منها مؤكداً ميتافيزيقية ، لاتعنى فقط عند من يعتقدونها : الإيمان ، بمعنى الثقة ، بل تعنى أيضاً ، وعلى الأخص : الإيمان ، بمعنى الاعتقاد .

ولكن أكثر وضوحاً : إن الفلاسفة كانوا يريدون أن يكون الإيمان الذى يبشرون به بين تلاميذهم ، ويريدون منهم أن يعتقدوه : هو الإيمان المتعقل ، والمبرهن عقلياً . أريد أن أقول : الإيمان الذى أثبتته العقل وأكدته " (شارل جنينبوت : تطور العقيدة ص ٢٩ ترجمة

: محمد محمد حسنين)

أثرت على المشاعر ، واستولت على الوجدان حتى أسلم المرء نفسه للنداء الإلهي ، فأمن به ، ونفذ تعاليمه دون احتجاج أو اعتراض .

وبناء على هذا التفسير للعقيدة ، فإنها تحتل مكاناً سامياً في مجال الشعور الإنساني ، غير أنه يتطرق إلى الذهن تساؤل هام ، ألا وهو:

هل يمكن فهم العقيدة على أنها موقف ديني ، بعيداً عن الحالات النفسية التي تعترى الإنسان من

آن لآخر؟

إذ يبدو أن شعور الإنسان المتدين ، وموقفه من تعاليم العقيدة – أياً كانت هذه العقيدة ليست انفعالا ذاتيا خالصا ، فالعقيدة تغوص في الأعماق من ناحية موضوعها ، فهي آتية من أعماق النفس الإنسانية ، وتتحدد معالمها في اللاشعور ، ثم تبرز إلى الوجود بصور شتى ، ومعالم متعددة ؛ فلو صارت العقيدة في صورتها المادية المرئية تابعة من هيكلها الخارجي ، لأصبح من المستحيل وجود تعليل لبعض الظواهر الدينية ، أو تفسير مقنع لنصوص وطقوس مقدسة ، فعلى سبيل المثال:

هل يمكن للمرء أن يفسر دوافع " البانثو " إلى تعظيم الموت وتقديسه ؟

وهل نستطيع وصف تقديس " بهاكتي " في عقيدة الفشنو ؟

وهل يمكن أن يفسر الإيمان عند أهل السنة في الإسلام بالعقيدة ؟

هل يطلق وصف عقيدة على تعظيم الاسم في " جودو شنشو " ؟

ويمكن أن يطرح نوع آخر من الأسئلة :

هل يجوز أن تسمى حالة انغماس الإنسان في الخيال الذي يقوده إلى الألوهية عقيدة ؟

هل تصبغ مناجاة المسيح لربه فك بعض التعبيرات اللغوية:

"سيكك وإلهك " عقيدة ؟

ينبنى هذا التعمق في تفسير العقيدة على الملاحظات التالية:

أولاً : لا يمكن أن يغفل المرء عن أن الاستخدام الصحيح لمفهوم " العقيدة " يبدو في مقارنة الأديان حالة

نفسية ، تتخذ صورة رسمية ، وتلك هي المضمون المادى لكل دين على حدة .

ثانياً : أن من الخطأ البين أن يقتصر مفهوم " العقيدة " على نوعية معينة من الأديان ، أو تُحصَر في الأديان

السماوية ، لأن ذلك يؤدي إلى إغفال عناصر متشابهة في جميع الأديان ، بصرف النظر عن قلة هذه

العناصر أو كثرتها ، إذ من الممكن - بل من المحتم - أن يؤدي هذا الخطأ إلى :

- إغفال التشابه النسبي في اختلاف موضوع العقيدة .

- أن يصبح التحوير أو التأويل المتعسف وسيلة لإظهار أنواع عدة من الاختلافات التي تؤثر على

وحدة الأديان في الهدف .

إذ الوحدة تبدو ممكنة عندما يسيطر التسامح على أبناء العقائد المختلفة ، فيتجاوزون ، ويتناقشون

بموضوعية . ومن الممكن أن يبرز هذا الموقف في ثلاثة جوانب :

١ . العقيدة ، وإن كانت علاقة بين المعبود والعابد ، إلا أنها ليست منحصرة في الشعور الداخلى

فحسب ، بل تتجاوزه إلى الظهور بأشكال وصيغ مختلفة ، فهي إحساس شخصى ، يظهر في

صورة ظواهر خارجية ، أو هي تصورات روحانية لا يستدل عليها إلا بواسطة سلوكيات تدل

عليها ، فالجانب الروحى لا يُدرك بدون عقيدة ، إذ كل انطقوس العملية تقوم أساساً على

اقتناع مطلق بالوجود ، والقوى الكامنة فيه ، سواء كانت جزءاً منه ، أو خارج ماهيته ، غير

أن العنصر الأساسى لها أنها مؤثرة فيه تأثير الوجود من العدم ، أو تصريفه وتدبيره . وبناء عليه

لا تكون العقيدة مبدأً احتمالياً في عالم الظواهر ، بل هي علاقة ثابتة تربط بين عالم روحانى غير

مرئى داخل الإنسان ، وبين ظواهر : تعلق بما في سلوكه ، وخضوع لأوامرها في كل مايقوم به

من طقوس يعتقد أنها تقوده في حياته إلى ما ينفعه في الدنيا ، ويشبهه بالجزء الأوفى فيما وراء هذه

الحياة . ومن هنا تكون هذه العلاقة معتمدة أساساً على إحساس داخلى غير قابل للظهور .^{١٠}

¹⁰ لا تأخذ عقيدة ما صفتها العقائدية إلا عندما توضع في صيغة ، لكنه يُقضى عليها بالجمود الأرثوذكسى منذ اليوم الذى تضع لها فيه السلطة

الدينية هذه الصيغة ، وبعبارة أخرى ، منذ اليوم الذى يفرض عليها التعرف لها بالاختصاص من المؤمنين صيغة لا يحق لها بعد ذلك أن تتجاوزها ؛

إذ المفروض أن تلك الصيغة تشتمل ، في صورة إنسانية كاملة ، على الحقيقة الكاملة التي لا يمكن أن يصل إليها البشر . غير أنه إذا كانت

المعتقدات تستمد غذاءها من المشاعر الدينية حقيقة ، وإذا كانت لا تستطيع أن تعيش إذا ابتعدت عنها ، فإنه يصبح من الواضح أن تبيتها في

صيغة من صيغ السلطة يعنى حكماً عليها بالإعدام ، ينفذ عاجلاً أم آجلاً . [جنسييرت ٣١٠]

يضاف إلى هذا أنه من الممكن أن يحدث تعارض بين هذا الإحساس الداخلى وبشعور عقلاى - وهو فى الغالب الأعم داخلى أيضاً - لا يعترف بالعقيدة ، بل قد حدث ذلك - وما زال - على امتداد التاريخ الإنسانى.

وإلى جانب التفكير الدينى الخالص ، الذى يكفى وحده لتعديل العقائد وهدمها ، يوجد التفكير الفلسفى ، فالفكر الإنسانى ، فى تطبيقاته العليا ، يقوم بدور كبير فى هدم بعض المفاهيم العقائدية . ألسنا نعرف ، إذا اقتصرنا على الديانتين : اليهودية والمسيحية ، أن تأثير الفلاسفة الأفلاطونية والرواقية قد تمخض أولاً عن الفيلونية ، ثم بعد ذلك عن مذهب الإسكندرية ؛ فوضع أساتذة الفيلونية لقضايا الإيمان اليهودى ، ووضع أساتذة مدرسة الإسكندرية لقضايا الإيمان المسيحى شروحاً جديدة ثرية ، فاقت الشروح السابقة التى اعتبرت المأثورات أنها مقدسة ؟ وأن المذهب الأرسطاليسى جعل الناس يرون مؤكداً المسيحية بعين غير تلك التى كانوا يرونها بما حتى ظهوره ؟ "وأن فلسفة ديكارت مهدت لظهور العقلانية المضادة للمسيحية فى القرن الثامن عشر ، كما مهدت فلسفة "كانت" و "هيجل" لظهور المذهب النقدى فى القرن التاسع عشر؟ وأنه فى كل هذه المراحل ظهرت طرائق جديدة لدراسة العقائد ؟ إن الفلسفة لا يمكن أن تعدل إلا وجهة نظر المثقفين ، هذا واضح ، لكنها تعدلها بالضرورة ؛ لأن القانون الذى يحكم العقل هو الجمع بين تصوراته فى نظام متسق ومحدد .

على أن النتائج التى يتوصل إليها الفكر الفلسفى تتسرب شيئاً فشيئاً من صفوة المثقفين لتهبط إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع ، إنها تفرض نفسها كقواعد أساسية للفكر العادى ، ولا يعود أحد يناقشها ، ثم تقوم بطريقة غير مرئية ، لكنها لاتقهر ، بتغيير العقلية التى جعلت بعض العقائد مقبولة. لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية على حق ، عندما أهملت " كانت " ، ولم تقدره حق قدره ، لأن الأثر العميق والمستمر لهذا المفكر فعل فعله ، كاعتراض على العقائد الأرثوذكسية ، حتى دون أن يريد ذلك هو نفسه صراحة ."

لكن العقيدة المعتمدة على الإحساس الداخلى أزاحت من أمامها كل الأفكار العقلانية المعارضة ، وقضت على كل اتجاه فكرى أنكر تعاليمها وطقوسها ومبادئها. ومن الملفت للنظر أن إطلاق وصف الكفر والزندقة على الأفكار المعارضة للعقيدة ، أطلقت أيضاً على العقيدة نفسها فى بداية ظهورها فى المجتمع. فاستخدام المصطلحات الدالة على الضلال والكفر والزندقة والارتداد ، وما شابهها نسبي ؛ فبينما يُطلقه

المجتمع على صاحب الرسالة - ومن تبعه - في بداية دعوته ، يستخدمه المؤمنون بهذه الرسالة في أهام من يخالفهم ويعارضهم.

٢. تشترك كل الأديان في أن العقيدة تنبع من شعور داخلي وإحساس وجداني ؛ إذ أن الإحساس الباطني لدى المؤمنين يكاد يكون واحداً ، على الرغم من اختلاف عقائدهم، وتباين تصوراتهم إزاء المعبود ، وتعدد أشكال العبادات ، وتنوع المبادئ والتشريعات . كذلك تتوحد الأديان في مجال الموازنة بين ماتغرسه العقيدة في نفوس المؤمنين من ربط الثواب والعقاب بمدى الالتزام بمبادئها وتعاليمها ، سواء كانت أوامر أو نواهي، إذ سيطرة الخوف المتأفريقي على العابد موجود في كل الأديان ، وهو العامل الرئيسي في احتواء العقيدة لمشاعر وأحاسيس المؤمن - أياً كان مضمون العقيدة وتعاليمها - ، توجهه إلى سلوك معين ، وتدفعه إلى الدفاع عنها بكل الوسائل ، وتجمع المؤمنين بها حول مبادئ معينة في مواجهة المخالفين لهم .

٣. نصوص مقدسة، وتفسيرات أو تأويلات العقل الإنساني لهذه النصوص، أو بمعنى آخر: نصوص مقدسة ، وفكر إنساني نشأ وترعرع حول هذه النصوص ، يقود المجتمع إلى اتجاه معين في ظل مناخ ثقافي ، مرتبط بالزمان والمكان ، ومتعلق بأحداث داخل هذين الإطارين : الزماني والمكاني. وفي مسيرة هذا الفكر الإنساني - الديني ، وتطوره - نشأت ظواهر فكرية ، اكتسبت الصفة الدينية باعتبارها خرجت من عباءة المشتغلين بالنصوص الدينية ، أو ظهرت في صورة مراسم كهنوتية، أو قرارات واجبة التنفيذ ، ثم صارت جزءاً لا يتجزأ من الدين ، بل كثير من هذه المراسم والقرارات تعمقت في العقل الديني ، وتمكنت منه ، حتى أصبحت في مرتبة أعلى من مرتبة النصوص المنسوبة إلى مؤسس الدين نفسه ، أو إلى النبي الموحى إليه بهذه النصوص. ويبدو ذلك واضحاً في قرارات المجامع الكنسية ، وإصدارات المؤتمرات البيوذية ، وآراء بعض المذاهب الإسلامية .

فالعقيدة في هذا الجانب أقوال وآراء ، واتجاهات ، كونت هيكلاً يتعدد بتعدد الشعوب والأقوام ، ويتنوع بتنوع الآراء والاتجاهات الفكرية بين الأديان المختلفة في مصادرها ومنابعها ، وحتى في داخل الدين الواحد تتشعب عناصر العقيدة إلى مذاهب وفرق شتى ، تتنازع وتتشاحن في كثير من المسائل الدينية ، لدرجة تصل إلى حد الانقسام والتميز ، بحيث يصير كل واحد مذهباً قائماً بذاته لا يربطه بالآخر شيئ ، اللهم إلا صلوات واهية تجمعهم بالأصل البعيد ، ألا وهو منشأ الدين ، مثال ذلك : الكاثوليكية ، والبروتستانتية

(الإنجيلية) ، والأرثوذكسية ، وغيرها من المذاهب الأقل عدداً وانتشاراً في الدين المسيحي ، وكذلك العيسوية ، والعنانية ، والسامرية في الدين اليهودي ، والشيعية ، وأهل السنة في الإسلام ... إلخ .
وليس الأمر قاصراً في هذا على الأديان السماوية ، بل يشمل كل أديان الأرض ؛ فقد تفرقت كلها إلى شيع ومذاهب مختلفة ، يهاجم بعضها بعضاً ، ويكيد أتباع كل مذهب للآخرين ، لدرجة الوصول إلى مقارعة السلاح .

ولا يحتاج الأمر إلى التأكيد على أن النزاعات الدينية احتلت معظم صفحات التاريخ في المجتمعات الإنسانية ، بل إنها لازالت تسيطر على كثير من النزاعات المحتدمة الآن على الساحة الدولية ، فالنزاع بين العرب واليهود في الشرق الأوسط قائم على أساس ديني ، وبين البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا الشمالية أشعلته مشاعر الاختلاف في الدين ، وبين المسلمين والصرب في منطقة البلقان ، وبين شمال السودان وجنوبه توججه الاختلافات الدينية ، بل إن الاختلاف بين المسلمين أنفسهم كان سبباً في اندلاع الصراع المسلح في المجتمعات الإسلامية ، بين المسلم وأخيه المسلم : في الصومال ، وأفغانستان ، وصحراء المغرب العربي ، وينطوي تحته أيضاً الصراع بين فصائل الجماعات الإسلامية وبين السلطة السياسية : في الجزائر ، وأمريكا ، واليابان ، والسعودية ، ومصر و..... إلخ .

إن العقيدة ، أى عقيدة ، هى فى وقت ما حقيقة معصومة ، وحكم لا يمكن نقضه ، وهى من حيث جوهرها موحى بما ، أوحاها الله مباشرة ، كما حدث فوق جبل سيناء ، على سبيل المثال ، حيث تكلم يهوه (الله) إلى موسى ، أو أوحى بما عن طريق المسيح خلال تعاليمه الأرضية التى تروىها لنا الأناجيل ، (أو أوحيت لمن اصطفاه الله رسولاً إلى الناس بواسطة جبريل) ، أو التى أوحيت إلينا بطريق غير مباشر بواسطة الإلهام لمن لديهم الأهلية والاستعداد لتلقيه ، أى لرؤساء الكهنوت الذين مازال يحركهم روح الحوارين .

إذن فلا يمكن الاعتراف بالعقيدة إلا بعد أن تكون قد حددت وصيغت فى عبارة خاصة ، وأعلنت على الملأ بواسطة السلطة المختصة - أى بواسطة المجمع المقدسة فى الزمن الغابر ، وبواسطة البابا حالياً فيما يتعلق بالكنيسة الكاثوليكية - بإلهام من روح القدس . وبعد أن تقول السلطة كلمتها ، فإن العقيدة التى يفترض أنها لاتنطق بغير الحقيقة تصبح بالنسبة لأتباع الكنيسة موضوع إيمان ثابت ومعصوم ، لأن الله لا يخطئ ولا يوقع أحداً فى الخطأ . ثم تصبح هذه العقيدة - من الناحية النظرية على الأقل - وحي ، وسلطة ، وعصمة . وتلك إذن هى الكلمات الثلاث التى تحدد العقيدة ، والتى يمكن القول بأنها تعبر عن جوانبها الأساسية .

أما العقل الأساسي الذي لا بد منه لعقائد اليونان الفلسفية ، فلم يعد له هنا من دور ، اللهم إلا قبول القضايا العقائدية وتبريرها إن أراد .

وإذا نُظِرَ إلى العقيدة من خارجها ، واعتبرت من وجهة نظر اللاديين ، فإنها في هذه الحالة لا تزيد عن أن تكون قراراً أو مرسوماً قنصلياً أو بابوياً . غير أن المؤمن يرى الأمر على خلاف ذلك ، فعنده أن سلطة البابا التي يخيل للبعض أنها هي التي أوجدت العقيدة لما يبدو من اتخاذها مظهراً آدمياً ، هي سلطة لا يمكن مهاجتها ، لأنها لا تتصرف من تلقاء نفسها ، ولا بطريقة تعسفية ، وهو يرى أن قرارات البابا ليس فيها شيء شخصي ، فسلطته ليست إلا سلطة ضرورية ، لكنها حيادية بين المؤمنين وربهم . فالبابا رجل اختير بواسطة أمثاله من البشر ، وهو أثناء حياته العادية عرضة للزلل والخطأ اللذين يتعرض لهما كل عقل بشري ، لكنه يشعر بارتفاعه فوق الضعف البشري الجبليّ حالما ينتجه إلى روح القدس طالباً منه العون والإرشاد . ومن هنا كان جوهر العقيدة بالنسبة للمسيحي التابع لكنيسة روما هو الوحي الذي يضمن صحتها . ونفس الشيء يقال بالنسبة لأتباع كل الأديان ”

ومع أن الصفة الخاصة بالعقيدة المسيحية _ على سبيل المثال _ هي كونها موحى بها . ومع أن كل العقائد تشاركها هذه الصفة المميزة ، فإن كلمة " عقيدة " تتسع اليوم لتشمل مؤكدات متعددة ، ومختلفة نوعاً ما ، يمكن حصرها في مجموعتين على الأقل ؛ ذلك أنه يمكن بادئ ذي بدء أن نفرّد القضايا الأساسية في الدين : أنها بالطبع قضايا عقلية في ذاتها ، لأن العقل إذا ترك وشأنه لا يجد أمامه إلا افتراضها وتأكيدا معتمداً على نوع من الأمان والثقة الذاتية . أقول على نوع من العاطفة التي لا يشعر بها بعض الناس ، بينما يجب ، في تقدير البعض الآخر ، أن نفهمها على أنها وحي فطري ، يجده كل منا في نفسه . ومهما يكن فإن هذه القضايا لا يمكن إثباتها بطريقة موضوعية ، أي أنها غير قابلة لطرائق الاستدلال العلمي . من هذه القضايا تأكيد وجود الله ، وتأكيد عنايته ، أو تأكيد وجود الروح والحياة الأخرى .

وتمتاز هذه القضايا ، أولاً ، ببساطتها . إنها لا يمكن الاستدلال على صحتها بدقة ، لكنها متصورة ، ويمكن للعقل البشري أن يتأكد من صحتها بطرائق تدرج سهولة وصعوبة وقوة وضعفاً ، معتمداً على تأمل مفاهيم السببية والغائية والعدالة .

وتمتاز هذه القضايا ، ثانياً ، بأنها منتشرة غاية الانتشار ؛ إذ نجدتها حالياً موجودة في أساس معظم الأديان الحية وكثير من الديانات التي كانت موجودة فيما مضى . حقيقة ، إن كل دين يرر وجودها

بطريقته الخاصة ، غير أنه لايجد صعوبة في هذا التبرير ، لما يراه من أنها فطرية . وقد كان المسيحيون القدماء يقولون : إنه إذا كان في استطاعة العقل البشرى أن يثبت هذه القضايا الأولية بسهولة ، فذلك لأن الروح تعرف خالقها . وكانوا يضيفون أن آدم قد تلقى بين يدي الله وعنه مباشرة معرفة تامة لأسس الإيمان الضرورية ، معرفة أورها لعقبه ، يجدها كل منهم في أعماق كيانه . ثم إن موسى والأنبياء ، وحتى عيسى نفسه (ومحمد أيضاً) جاءوا الواحد بعد الآخر ، يؤكدون هذه الحقيقة ويررونها . فكل دين من الأديان السماوية ينظم ، لحسابه الخاص ، وطبقاً للزاوية التي تلقى الوحي من خلالها ، هذا (هو) التراث المشترك من النظر الإنساني في الدين .

وإلى جانب هذه القضايا الأولية توجد قضايا خاصة أكثر تعقيداً ، قضايا لايسيطر عليها العقل . إنها تلك التي قال الأسقف " مينيوت Mignot " بصددها : " العقيدة هي في حد ذاتها أعجوبة غير قابلة للتصديق . إنها شيء مرعب ، إنما تقتضى إذلال العقل وخضوعه لما لايمكن فهمه . كما أنها يترتب عليها من الآثار الروحية والأخلاقية ما قد لا يكون في الاستطاعة اختراعه ."¹³ وعلى سبيل المثال ، فالقول بأن الإنسان يولد حاملاً ليدور هلاكه المرتبط بخطيئة ارتكبتها أبو البشر في جنة عدن ، ليس على الإطلاق وضعاً لفكرة يمكن فهمها أو قبولها . إنها عقيدة الخطيئة الأصلية . والقول بأن عيسى قد ولدته عذراء ، بعد أن حدثت معجزة حملها به عن طريق روح القدس ، هذا القول ليس خروجاً عن دائرة التجربة فقط ، بل خروجاً عن دائرة العقل . أريد أن أقول : إن عقيدة حمل العذراء ، إذا نظر إليها في حد ذاتها ، لاتعطينا أى مادة للاستدلال العقلي ، وهو الاستدلال الذى يستهدف تقرير صحة هذه العقيدة ، وصحة النصوص التي قامت عليها ، والقول بأن عيسى ، الذى يمكن اعتباره من الناحيتين : الروحية والدينية فوق مستوى البشر ، سوماً وسناً ، القول بأن هذا الرجل هو إنسان كامل ، أى ليس له مظهر إنسان فقط ، وهو في نفس الوقت تجسيد للإله اللامحدود ، والذى لايمكن تصور كنهه ، أى أن جسده المرئي المحدود بالضرورة قد احتوى اللامتاهى الإلهي . هذا القول لايمكن تصوره . إنها عقيدة التجسد المعتمدة على عقيدة أخرى ، هي القول بطبعيتين كاملتين في المسيح . ومن الميسور أن ندرك أن كل محاولات الاستدلال على صحة هذه العقيدة ليست سوى مجرد دعاوى ، تعتمد على أكثر أنواع الشكشقة اللفظية تفاهةً وخلواً من المعنى . والقول بأن الله هو في نفس الوقت واحد ومثلث ، وأن الإنسان يتمثله على أنه ثلاثة أشخاص متميزة : الأب ، والإبن

¹³ (جنسيبرت ٥٨ نقل عن : Critiqueet tradition, dans le correspondant du 10 Janvier, 1904.

، والروح ، ثم يتمثله في نفس الوقت على أنه واحد وحدة كاملة ، هذا القول ليس من السهل تطويع العقل البشري لقبوله دون أن نكرهه على الخروج عن طبيعته ، وأن نفرض عليه معرفة ما يستحيل معرفته . هذه العقائد كلها ، وغيرها مما هو على شاكلتها ، هي في الحقيقة مما لا يمكن للإنسان فهمه ، بل مما لا يمكن له تصوره . والإيضاحات التي يحيطها بها رجال اللاهوت ليست سوى تأويلات وصيغ مدرسية ، أو شرح لا يضمن صحتها إلا السلطة العليا الرفيعة التي يقبل المؤمنون أن رجال الكهنوت وحدهم هم الذين يجوزونها .

والحق أن هذه العقائد تمثل " مجموعة " من المعارف التي لا يمكن أن تكون على شاكلة المعارف الموضوعية ، " إنما لرفعتها وسموها ، تظل لاعلاقة لها بالحياة العقلية التي نعيشها " كما أنها لا يمكن تصورها إلا على أنها أشياء موحى بها ، يعترف المرء سلفاً بأنه لا يمكن تحييدها ، غير أنها أشياء يستدعى تنظيمها إقامة بناء عقائدي ضخم ومعقد ينتظم كل مسائل ما وراء الطبيعة... فالعقائد الحقيقية ، وهي تلك التي تولد ، وتتطور ، وتتحوّل ، وتموت ، وهي هذا النوع الثاني من العقائد . هي التي لا يمكن أن تبرر وجودها إلا معتمدة على الوحي.¹⁴ أو على قدااسة مصدرها ، سواء كان هذا التقديس مؤسساً على عصمة أو مركز روحي يوهم المؤمنين بأنه رأى يتفق مع مفهوم الوحي المترل من السماء .

الدين

تبدأ الخطوة الأولى في دراسة الأديان بتحديد مصطلحات هذا العلم ، فهذه البداية ، وإن كانت لازمة في كل العلوم ، فهي في مجال علم الأديان من الأمور الأساسية ، التي لا تقوم الدراسة إلا على أساسها ، ذلك أن الدين عبارة عن أفكار وتصورات لا يصل الباحث إليها إلا من خلال المصطلحات التي تُفصَح عنها ، والكلمات التي تكمن وراءها خواج النفس ، وثوران العواطف الدينية ، واهتزازات الوجدان من جراء سماع ، أو ترديد تلك الكلمات المعينة ، أو تخيل صورة ذات أثر على الوجدان ، أملتتها صيغ دينية ، وحركتها نصوص مقدسة .

ولهذا كان لا بد لمن يريد دراسة الأديان أن يغوص وراء المصطلحات ، ويحاول استكشاف معاني الكلمات التي تتردد في عالم الطقوس والعبادات ، ويزيح الستار - كلما أمكن ذلك - عن سر القوة المنبثقة من عملية اتصال الإنسان بالمقدس ، سواء كان ذلك عن طريق الممارسات العملية ، أو بواسطة ترديد

¹⁴ (قرن : جيبرت ٥٦ - ٥٧

كلمات معينة ، ومدى تأثير الزمان والمكان في إشعال الوجدان الروحي ؛ إذ بدون هذا البحث عن معاني المصطلحات الدينية لا يستطيع الباحث تحديد المراد من الكلمات التي تدور في هذا العالم اللامتناهي ، مثل :

الدين ، المقدس ، التابو ، المحرم ، المعبود ، الطقوسالخ

كما يساعد تحديد المصطلحات طلاب هذه الدراسات على فهم مناهج هذا العلم ، ويحدد لهم طرق البحث وأطرافه وموضوعاته .

وأول ما يتعين على الباحث تحديده في هذا المجال كلمة :

" الدين "

فهى - إلى كونها أصلاً لهذا العلم ، وأساساً لكل ما يتضمنه من بحوث ودراسات - من الكلمات التي تجرى على ألسنة الناس جميعاً ، بصرف النظر عن مستوياتهم العلمية والحضارية ؛ إذ يستعملها العالم وغير العالم ، وينطق بها من يعيش في الكهوف والصحارى والوديان ، ومن يسكن القصور والعمارات الشاهقة ، لأن الدين عنصر أساسى في حياة الناس ، أفراداً وجماعات، بل إنه يلعب دوراً هاماً في سلوك كل الناس ، حتى الذين تنكروا له تحت ضغط الحياة المعاصرة ، أو رفضوه انفعالاً وتأثراً بتيارات الفكر المادى الذى كاد أن يسيطر على عقول المفكرين والباحثين في عالمنا المعاصر .

فما معنى كلمة : " الدين ؟ وما المقصود بها ؟

الدين

حاول العلماء والباحثون في مجال مقارنة الأديان تعريف الدين ، وتحديد معناه ، لكن كثرة التصورات الدينية للمعبود والمقدس وتنوعها ، وتعدد صيغ العبادات واختلافاتها - في الأداء والمضمون اختلافاً يستحيل معه وضعها في إطار واحد - حال دون الوصول إلى تعريف محدد جامع لكل الأديان ، مانع لكل ماعدا الدين من الدخول تحت هذا التعريف ، لهذا تعددت التعاريف بتعدد مواقف المفكرين ومذاهبهم في فهم الوجود ، وتحديد علاقات الموجودات بعضها ببعض .

فمن الباحثين مَنْ نظر إلى الدين من ناحية أنه أعمال أو سلوك يدل على اعتقاد جماعة بوجود قوة إلهية غير مرئية ، تُدبّر الأشياء ، كما تدبر أمور الإنسان ومصيره ، مع رغبة في إرضاء تلك القوة بالطاعة أو العبادة.¹⁵

وكان هناك مَنْ نظر إلى الدين من ناحية أنه أداء لشعائر ، أو اتباع لأوامر مصدرها الإيمان بتلك القوة واقتربت بذلك طريقته في التفكير ، أو السلوك الأخلاقي الذي يترتب على هذا الاعتقاد ، يقول "كانت" في كتابه (الدين في حدود العقل): "الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية". وهناك مَنْ نظر إلى الدين من حيث مظهره في الحياة الاجتماعية ، فرأى أن ذلك يتمثل في الشعائر التي يؤديها الأفراد معاً ، وفي دورها في تنظيم حياة الجماعة ، وفي ذلك يقول "سانت جيمس Saint James": "إن العقيدة التي لاتدور حولها أى شعائر ، أو طقوس تموت ، لأنها تكون وحيدة ومنعزلة" ، ويقول آخر : ".... فإن المرء لا يكون متديناً إن لم يكن سلوكه خاضعاً - بشكل ما - للخوف من الله" ، ومن ناحية أخرى فإن الشعائر والطقوس المجردة من كل اعتقاد ديني لاتعتبر ديناً.¹⁶ ويقول "سانت

¹⁵ يقول فريزر : " الدين : هو الترفل والتقرب إلى القوى العليا التي تفوق الإنسان والتي يعتقد أنها توجه سير الطبيعة ، والحياة البشرية ، وتحكم فيهما . وعلى أساس هذا التعريف يتألف الدين من عنصرين ، أحدهما نظري ، وهو : الإيمان في وجود قوة أعلى وأسمى من الإنسان ، والآخر عملي ، وهو : محاولة استمالة هذه القوة وإرضائها.(الفنن الذهبي ص ٢١٧-٢١٨)

ويرى "دوركايم" أن كل الظواهر الدينية تنقسم إلى قسمين أساسيين ، هما : "العقائد" و "الطقوس" . وتفترض العقائد تقسيم الأشياء والعالم إلى ماهو مقدس وماهو غير مقدس . وهذا التقسيم إلى المقدس وغير المقدس ، هو الصفة المميزة للفكر الديني ، مهما بلغت = درجة سذاجته أو تعقده . ولذلك كانت العقائد الدينية ، هي أفكار أو تصورات تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وغير المقدسة وما بينهما من علاقات . أما الطقوس فهي نماذج الأفعال ، و "أشكال السلوك" التي ينبغي أن يمارسها الإنسان حيال تلك الأشياء المقدسة .
¹⁶ فقد يتصرف شخصان بطريقة واحدة تماماً ، ومع ذلك يعتبر أحدهما متديناً ، والآخر غير متدين ، فأما الذي ينبع سلوكه من حب الله ، أو الخوف منه فإنه يكون متديناً ، وأما الذي ينبع سلوكه من حب الناس ، أو خشيتهم فإنه يعتبر شخصاً أخلاقياً ، أو لاجتماعياً ، تبعاً لسلوكه ، متفقاً مع الخير العام ، أو متعارضاً معه . ومن هنا كان الإيمان والممارسة ، أو بالتعبير اللاهوتي : العقيدة والشريعة ، على درجة واحدة من الأهمية بالنسبة للدين ، إذ لايمكن له أن يقوم بدونهما معاً . ولكن ليس من الضروري أن تتخذ الممارسات الدينية شكل الشعائر ، أى أنه ليس من الضروري أن تتألف من تقديم القرابين وتلاوة الصلوات وما إلى ذلك من الطقوس الظاهرة الملموسة . فالهدف من الشعائر هو إرضاء الرب ، والرب نفسه كائن يجيد الغبطة في الإحسان والرحمة والتطهر أكثر مما يجدها في إراقة دم الأضحيات ، وترتيل الترانيم ، وحرق البخور . وعلى ذلك فإن العبادة لايسجلون رضا الرب بالتذلل والاسترحام أو بالتسبيح بحمده ، وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمن في معابده ، بقدر ما يُرضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين ، لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية بقدر مايسمح لهم به ضعفهم البشري (فريزر ص ٢١٨-٢١٩)

جيمس" أيضاً : " إن الدين الخالص الذى لاتشوبه شائبة قبل الاعتراف بالله والآب هو : أن تزور اليتامى، والأرامل ، وتواسيهم فى محتهم ، وأن تطهر نفسك من أدران الدنيا ¹⁷.
وهناك بعض الأمثلة لاختلاف الباحثين فى تعريفهم للدين :

يقول "سيسرون " فى كتابه (عن القوانين) :

" الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية .
ويقول " شلاير ماخر " فى (مقالات عن الديانة) :

" قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة ."
ويقول الأب " شاتل " فى كتاب (قانون الإنسانية) : " الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه ."
ويقول " روبرت سينسر " فى خاتمة كتاب (المبادئ الأولية) :

" الإيمان بقوة لايمكن تصورها نهايتها الزمانية ولاالمكانية ، هو العنصر الرئيسى فى الدين ."
ويقول " تايلر " فى كتاب (المدنيات البدائية) :

" الدين هو الإيمان بكائنات روحية ."
ويقول " ماكس موللر " فى كتاب (نشأة الدين ونموه) :

" الدين هو محاولة تصور مالايمكن تصوره ، والتعبير عما لايمكن التعبير عنه ، هو التطلع اللائهاى ، هو حب الله ."
ويقول " إميل برنوف " فى (علم الديانات) :

" الدين هو العبادة ، والعبادة عمل مزدوج : فهى عمل عقلى ، به يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبى أو انعطاف محبة ، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة ."
ويقول " ريفيل " فى (مقدمة تاريخ الأديان) :

" الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطلب له أن يشعر باتصاله بها ."
ويقول " جويوه " فى كتاب (لادينية المستقبل) :

¹⁷ المصدر السابق ص ٢١٩

" الديانة : هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية ، والشعور الديني : هو الشعور بتبعيتها لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون ".
ويقول " ميشيل ماير " في كتاب (تعاليم خلقية ودينية) :
" الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفي حق أنفسنا " .

ويقول " سلفان بيريسيه " في كتاب (العلم والديانات) :
" الدين : هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية " .
ويقول " سالومون ريناك " في (التاريخ العام للديانات) :
" الدين : هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة " .
ويقول " إميل دوركايم " في (الصور الأولية للحياة الدينية) :
" الدين : مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة)،
اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة " ¹⁸
يتبين لنا من هذا العرض عدة ملاحظات :

أولاً : اختلاف وجهات النظر في مفهوم الدين ، فمنهم من حصره في العبادات والطقوس، ومنهم من تجاوز ذلك إلى ضبط السلوك والمعاملات ، وآخرون حصروه في التأملات الروحانية ، والانفعالات الوجدانية إزاء المقدس .

ثانياً : اشترك معظم الباحثين في مراعات عنصر الألوهية في التعريف ، وإن جاء التعبير عنها بصور مختلفة ، بينما حذف آخرون هذا العنصر بحجة أن هناك أدياناً خلت منه : كالبودية في مرحلتها الأولى (إذ يُنظر إلى من أله بوذا في العصور المتأخرة على أنه مبتدع) ، والجاينية ، والكونفوشيوسية ، فقد انحصرت تعاليمهما في مبادئ أخلاقية ، ووصايا تتعلق بسلوك الإنسان وتعامله في حياته الدنيوية. ¹⁹

¹⁸ (دراز : الدين — ٢٩ - ٣٢)

¹⁹ ذهب 'دوركايم' إلى أن فكرة الألوهية ليست عنصراً مميزاً للحياة الدينية ، فلم يبدأ الدين ، بظهور فكرة الآلهة كما يرى 'فريزر' Frazer حيث أن هناك ديانات قد صدرت واستقامت "بلا آلهة" ، فالبودية - كما يقول " Burnouf " أخلاقى بلا دين ، لأنما مذهب إلهادى لا يعترف بفكرة الألوهية ، فلذلك أسماها "أولدنبرج Oldenburg " "ديناً بغير إله" .

ثالثاً : تناول بعض العلماء - وخاصة علماء الاجتماع - الدين من حيث مظهره في الحياة الاجتماعية ، فرأوا أن ذلك يتمثل في الشعائر التي يؤديها الأفراد معاً ، وفي دورها في تنظيم الحياة الاجتماعية ، كما غلب على تعريفات معظم الباحثين تناول مظاهر الدين ، دون بيان مصدر الدين .

رابعاً : من المعلوم أن هناك أنواعاً من التقديس لأشياء معينة عند البدائيين ، أضفت على حياتهم نظاماً دينياً معيناً ، ومختلفاً من شعب لآخر حسب نوع المقدس وقوة تأثيره على حياة من قدسوه ، كما أن هناك أنواعاً من الدين ، أو التقديس الفلسفي ، وأنواعاً أطلق عليها " الديانة الطبيعية " التي يزعم أصحابها أنها يمكن أن يتوصل إليها العقل الإنساني ، مع أن الأصول التي وضعوها لمثل تلك الديانة موجودة في الأديان المزلّة التي عرفوها ، وربما تربوا عليها ، وهناك أديان مخترعة . مثل (دين الإنسانية) ، بالإضافة إلى ديانات الشرق القديم الآسيوي التي لم يتوصل العلماء إلى جذورها ، أو يقفوا على مصادرها الأصلية .

فهل دخلت هذه الأديان - وغيرها ، وهو كثير منبث في جميع أركان المعمورة ، حيث لم يستطع أحد حتى الآن حصرها ، على الرغم من التقدم الهائل في الاكتشافات ووسائل الاتصالات- في هذه التعريفات ؟ لا..... ولن.....

خامساً : لن يستطيع عالم الإتيان بتعريف يجمع كل الأديان ، وبالتالي لا يوجد في علم الأديان اتفاق على تحديد معين ، أو تعريف جامع لكل التصورات الدينية المنتشرة في المجتمعات الإنسانية. كما أنه ليس هناك أمل في الوصول إلى تعريف مقبول يندرج تحته جميع الأديان ، خاصة وأنا نعيش في ظل حرية ثقافية ، أتاحت للإنسان - إلى حد ما - أن يختار ما يروق له من العقائد ، وأن يمارس حرية النقد لكل ماورثه من تقاليد وعادات ، حتى وإن كانت قائمة على معتقدات دينية ، فكيف تندرج هذه التوجهات المتعددة - التي أتاحتها هذه الحرية - تحت تعريف واحد ؟ بل كيف يمكن إدراج هذه المعتقدات غير الثابتة مع الدين ذات التعاليم المطلقة ، والعقائد التي لا تتغير ؟

و"الجانية Jainism" ، أيضاً هي ديانة لا تعترف بوجود إله ، والعالم عندهم قديم ، ولذلك أنكرت "الديانة الجانية" ، وجود الموجود "الحال" "الكامل" ، ولذلك حذف "دوركام" فكرة "وجود الإله" كعنصر يميز للديانة الدينية ، وكشرط أساسي لظهور الدين . [إسماعيل :

- هذا بالنظر إلى المعتقد (= الدين) بوجه عام ، أما إذا نظرنا إليه من جانب أصحاب الأديان المتنزلة من عند الله (اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام) ، لوجدنا أن هذه الأديان المتنزلة الثلاثة تشترك في أنها :
- منزلة من عند الله .
 - أتت من طريق واحد ، وهو الوحي .
 - جاءت مبادئها في صورة تعاليم حقيقية ، وضعت نظاماً للحياة .
 - نشأت حولها (أى المبادئ والنصوص المنزلة) علوم العقائد وفلسفتها، كما نشأت حضارة العلوم ، والفلسفة ، والآداب ، والفن بوجه عام .
- وهذا هو الفرق بين التعليم الإلهي للبشر ، وبين ما يتوصل إليه المفكرون بعقولهم مع شئ من الاستدلال ، أو يخترعونه على نحو متكلف ، أو تعسفي ، وليس له بقاء .

فما هو تعريف هذا الدين ؟

ينبغي علينا - قبل أن نبين هذا التعريف - ، تحديد المعنى اللغوي أولاً ؛ لأن ألفاظ اللغة تصورية ، " بمعنى أن وقوع اللفظ في سمع الفرد يؤدي إلى تصور مايفيده هذا اللفظ من معان ، وهو لا يستطيع - أبداً - أن يفهم المعنى بغير ذلك التصور ، كما أنه من جانب آخر يتأثر في هذا التصور بأفكاره الخاصة ، ومايملأ رأسه من معان سابقة " .²⁰

فماذا يفهم العربي عند سماع كلمة - الدين - ؟

وهل ينطبق مايدل اللفظ عليه من تصورات من الدين في فكره مع الوحي المنزل؟

نلاحظ أن اللغة العربية لم تحدد معنى لكلمة " الدين " تحديداً واضحاً ، ولاغرابة في هذا ، فالاستعمال اللغوي لكلمة الدين هو ترجمة لصور التقطها الفكر من البيئة ، حيث يشعر الإنسان أن الدين يدخل في جوانب كثيرة من جوانب الحياة ، بل لايكاد المرء يفصل بين ماهو ديني وماهو غير ديني في حياة المجتمعات البشرية قبل النهضة الحديثة ؛ إذ كان الدين هو الذى يرسم للناس معالم الحياة كلها ، ولم يعرف الإنسان

²⁰ (العشماوى : رسالة الوجود ص ٧٢

الفصل بين الدين وبين شئون الحياة الأخرى على هذا النحو المطبق في المجتمعات العلمانية ، والمقلدة لها ، إلا بعد ظهور نظرية الفصل بين الدين والدولة ، التي سيطرت على معظم شعوب العالم بعد الثورة الفرنسية ، ولهذا تباينت معاني كلمة الدين ، طبقاً لاستعمالها في جميع مجالات الحياة ، فالدين يطلق في اللغة العربية على عدة معان ، منها :

١- الجزاء ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : الرابعة]

أى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة . كما يقال : " كما تدين تدان . " أى كما تُجَازَى تُجَازَى ، وبفعلك ، وقيل : " كما تَفَعَّلَ يُفَعَّلُ بك . "

٢- الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِكَأَخَذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ . . ﴾

[يوسف : ٧٦]

أى فى حكم الملك وسلطانه ، ومنه : " الدِّيان " ، وهو من أسماء الله عز وجل ، ومعناه : الحَكم والقاضى ، فقد سئل بعض السلف عن على عليه السلام ، فقال : " كان ديان هذه الأمة بعد نبيها " أى قاضيتها وحاكمها . والديان : القهار ، ومنه قول ذى الأصبع العدوانى :

لاه ابن عمك لأفضلتَ فى حَسَبٍ * فينا ولا أنت دِيَانِي فَتَحْزُونِي

أى لست بقاهرى فتسوس أمرى . ويقال : " دِئْتهم فدانوا " أى قهرتهم فأطاعوا .

٣ - الطاعة ، يقال : " دِئْتُ له " أى أطعته ، كما يقال : " دان له دِيناً وديانة ، أى خضع وأطاع ، قال عمرو بن كلثوم :

وأياماً لنا غِراً كِراماً * عصينا المَلِكَ فيها أن ندينا

٤ - الذل ، يقال : " دانه دينا " ، أى أذله واستعبده ، والمدين : العبد ، يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ دِينِ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ وَاتَّبِعُوا مَوْلَى اللَّهِ فَقَلِبْ هَذَا قَلْبِي وَإِنِّي لَأَنتَهُنَّ عَائِدٌ ﴾ [البقرة : ١٧٦]

قال الفراء : " غير مدينين " ، أى غير مملوكين ، وفى الحديث :

" الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الموت " .

²¹ سنن الترمذى : كتاب القيامة ، باب ٢٥ ، والحديث تحت رقم ٢٤٥٩ .

قال أبو عبيدة : قوله : " دان نفسه " ، أى أذفا واستعبدها .
٥ - العادة والشأن ، تقول العرب : "مازال ذلك ديني وذئدني" ، أى عادتي. قال المنقب العبدى،
يذكر ناقته :

تقول : إذا درأتُ لها وضيئى * أهذا دينه أبداً ودينى "

ويبدو من ملاحظة هذه المعاني أنها تؤلف وحدة كلية ، يعبر كل معنى عن إحدى جوانبها - وهو الله - يُلزم المحكوم - وهو الإنسان - باتباع أسلوب معين مرسوم (يشمل عبادات ومعاملات) ، للتعبير عن طاعته ، وعبوديته له سبحانه وتعالى ، ووعد من امتثل (أى التزم بما ألزمه الله به) نجاحاً في الدنيا ، وفلاحاً في الآخرة ، وتوَعَّد من خالف بِؤساً (مادياً أو نفسياً) في الدنيا ، وعقاباً يوم الحساب .

فالمعاني متصلة ، بعضها ببعض اتصالاً لا ينفك ؛ لأننا إذا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها ، نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً ، بل صلة تامة في جوهر المعنى ، إذ نجد أن هذه المعاني الكثيرة تعود في نهاية الأمر إلى ثلاثة معاني ، تكاد تكون متلازمة ، بل نجد أن الفوارق بين هذه المعاني الثلاثة مرددة في الحقيقة إلى أن الكلمة التي يراد شرحها ليست كلمة واحدة ، بل ثلاث كلمات ، أو بعبارة أدق : أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب .

بيان ذلك أن كلمة " الدين " تؤخذ تارة من فعل مُتَعَدِّ بنفسه : "دانه ديناً" ، وتارة من فعل مُتَعَدِّ باللام : " دان له " ، وتارة من فعل مُتَعَدِّ بالياء : " دان به" . وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تدل عليها الصيغة :

١. فإذا قلنا: " دانه ديناً " عينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، وساسه ، ودبره ، وقهره وحاسبه ، وقضى في شأنه ، وجزاه ، وكافأه . فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى المُلْك والتصرف بما هو من شأن الملوك : من السياسة ، والتدبير ، والحكم ، والقهر والمحاسبة ، والجزاء . ومن ذلك : " مالك يوم الدين " ، أى يوم المحاسبة ، والجزاء ، وفي الحديث : "الكيس من دان نفسه " أى حكمها ، وضبطها . والديان : الحكم والقاضى .

٢. وإذا قلنا: " دان له " ، أردنا أنه أطاعه ، وخضع له . فالدين هنا : هو الخضوع ، والطاعة ، والعبادة ، والورع ، وكلمة : " الدين لله " يصح أن يفهم منها كلا المعنيين : الحكم لله ، أو

²² دراه : دفعه شديدا ، والوضين : بطن منسوج من سبور أو شعر .

الخصوع لله. ومن الواضح أن هذا المعنى الثاني ملازم للأول ، ومطووع له : " دانه فدان له " ،
أى قهره على الطاعة ، فخصع وأطاع.

٣. وإذا قلنا : " دان بالشيء " ، كان معناه : أنه اتخذ ديناً ومذهباً ، أى اعتقده ، أو اعتاده ، أو
تخلّق به. فالدين على هذا : هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظرياً ، أو عملياً ،
فالمذهب العملي لكل امرئ : هو عاداته وسيرته ، كما يقال : " هذا ديني وديني " . والمذهب
النظري عنده : هو عقيدته ، ورأيه الذي يعتنقه ، ومن ذلك قولهم : " دَيِّنْتُ الرجل " ، أى
وكَلَّته إلى دينه ، ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً في اعتقاده .

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع للاستعمالين قبله ، لأن العادة ، أو العقيدة التي يدان بها ، لها
من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم باتباعها.

وجملة القول في هذه المعاني اللغوية : أن كلمة " الدين " عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين ،
يُعَظَّم أحدهما الآخر ، ويخضع له ، فإذا وُصف بها الطرف الأول كانت خصوعاً وانقياداً ، وإذا وُصف بها
الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً ، وحكماً وإلزاماً ، وإذا نُظِرَ بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين ، كانت هي
الدستور المُتَظَّم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذي يعبر عنها.

ونستطيع الآن أن نقول: إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد ففى الاستعمال الأول، الدين :
هو إلزام الانقياد ، وفى الاستعمال الثاني : هو التزام الانقياد ، وفى الاستعمال الثالث : هو المبدأ الذى يلتزم
الانقياد له " .^{٢٣}

وهكذا نجد أن كلمة " الدين " تدور حول المعاني المتعلقة بالمعبود ، وما يتصل به من تشريعات
وقوانين ، وما يتعلق به من عباد له ، خضعوا لأوامره ، فنقدوها ، وصاروا بذلك منتسبين إليه ، ويظهر ذلك
واضحاً أيضاً عندما تبحث عن معنى كلمة " الدين " فى اللغات الأخرى ، فهى مشتقة فى اللغة اللاتينية من
كلمة " Relegere " ، ومعناها : " التأمل " وضدها : " Nerelegere " ، ومعناها : " الغفلة " . وتطلق
كلمة " الدين " ويراد بها : المقدس ، وهو ما حلت فيه قوة غيبية (أى قوة تفوق قوى الطبيعة) ميزته عن

^{٢٣} دراز . ٢٥-٢٧

الدينوى " Profan " ، وألبسته ثوب القداسة ، فاحتل مركزاً يرفعه عن غيره من الموجودات، ولذلك لا يجوز الاقتراب منه إلا في إطار التعاليم الدينية ، ويطلق عليه : " التابو Tabu " .²⁴

فإذا وُصِفَ اسم بوصف مشتق من كلمة "الدين" دل ذلك على أن مسمى هذا الاسم مقدس، وقد اشتهر بهذا فريق من أتباع المسيحية في القرون الوسطى ؛ إذ انحصرت معالم حياتهم في الزهد ، والفقر ، وعدم الزواج ، والطاعة المطلقة للكنيسة ، ودوام الصلاة ، فأطلق عليهم : "رجال الدين"، أى المقدسون. "

²⁴ (كلمة بوليفية ، أصلها في هذه اللغة : " Tapu " ، اكتشفها الرحالة " جيمس كوك James Cook " في الجزر الواقعة في المحيط الهادى ، وذلك في عام ١٧٧٧ م ، وهى من الكلمات التى يصعب ترجمتها ترجمة دقيقة ، ولذا أصبحت مصطلحاً علمياً في الكتابات الأنثروبولوجية ، والاجتماعية ، ولدى علماء الأديان في جميع اللغات . ويقصد بها الأشياء المقدسة - وكذلك الأشخاص - التى لا يجوز لأحد الاقتراب منها ، وإلا عرض نفسه للخطر ، أو دنس الشعائر التى يمارسها ، ولا يقتصر مبدأ التحريم على مجرد اللمس فحسب ، بل يعمدها إلى الرؤية والكلام وتناول الطعام . فإن رؤية الأشياء المقدسة تحرم تماماً على غير المقدس . وهناك بعض الطقوس عند الأرانتا " Arunta " تفرض على أفرادها صمتاً تاماً ، فيحرم الكلام بطريقة جبرية في الاحتفالات الدينية الكبرى . كما أن هناك بعض الكلمات المعينة التى لا يبيى أن يفوه بها الأفراد ، كأن لا يذكر مثلاً اسم الميت في فترة الحداد إلا همساً ، وإذا اقتضت الضرورة . كما تتضمن فكرة التحريم ، فكرة القداسة ، إذ أن كل ماهو مقدس ، يعتبر موضوعاً للتبجيل والاحترام ، فيحرم لذلك ذبح الحيوانات أو تناول النباتات المقدسة . [راجع إسماعيل ٩٠ - ٩٢]

يرى " NÖLLE " أنها تؤدى معنى كلمة " Mana " (طاقة سحرية) ، إذ يلاحظ كلا المعنيين فى تصور المقدس (التابو) لدى الشعوب البدائية ، ولا يقتصر تحريم الاقتراب على الأشياء ، أو الأشخاص المقدسين - لأن لديهم الطاقة السحرية أو تكمن فيهم القوة الغيبية - ، بل تتناول أيضاً كل ما حرمه الكاهن في المجتمعات البدائية ؛ فتصان حرمة رئيس القبيلة ، طبقاً للعادات والتقاليد الدينية ، ويحرم لمس الحائض والنفساء ، وكذلك الميت ، وإلا لحق الضرر من يخالف هذا . وعليه فيكون معنى (التابو) لا يجوز فعل كذا أو لا يبيى الاقتراب من كذا ، إما لقداسه ، أو لدنسه ونجاسته .

ويرى " فرويد Freud " في كتابه عن " الطوطم والتابو " أن أقرب ترجمة للكلمة هى : " الخشوف المقدس " ، لأنها تجمع بين خاصية القداسة التى تتمتع بها الأشياء التى تعتبر (تابو) ، وبين التحريمات والقيود التى تفرض على الناس إزاء = هذه الأشياء (كتحريم لمس الحائض والميت إلخ) . وتختلف قيود (التابو) عن القيود الرتبوية ، فى أنها لاتصدر عن أمر إلهي ، ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم ، كما تختلف عن النواحي الأخلاقية ، فى أنها لاتدخل ضمن نظام ممتاسك يبرر لنا هذه التحريمات ، وبين أسبابها وأصلها ، ولذا فإن قواعد التحريم فى (التابو) تُفَعَّل على علاقتها كأمر لامفر منه .

ويعتقد بعض الأنثروبولوجيين أن (التابو) هو أقدم قانون مكتوب للجنس البشرى . وتحريمات (التابو) تحرمات قاطعة ، ولذا فإن خرق (التابو) يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة والجزاء ضمناً ، وإن كانت هناك حالات يتولى المجتمع ذاته توقيع العقوبة على المعتدى فيها ، على اعتبار أن خرق (التابو) يلحق الأذى ، ليس بالشخص وحده ، وإنما بالمجتمع ككل ، وجعله هو نفسه (تابو) ، أى مصدر للأذى ، لأن لـ (التابو) القدرة على الانتقال من شئ لآخر ، أو من شخص لآخر .

(أنظر : " Nölle " : ٢٨٤ ، و " فريزر Frazer " : ١٣٠)

²⁵ (تأثر بهذا كثير من المسلمين ، فأطلقوا على من لبس المُرَقَع من الثياب ، وتناول حول الأضرحة : الدرأوش (درويش : كلمة فارسية ، ومعناها : فقير ، أو زاهد) ، وفهموا أن هؤلاء الذين يأكلون سحتاً أقرب إلى الله من غيرهم . وتلك نكسة فى فهم المسلمين

وقد عرف أحد رجال الدين المسيحي - وهو القديس توما الإكويني - " الدين " ، بأنه عبارة عن
الفضيلة التي بما يؤدي الإنسان لله ما يستحقه من التعظيم . ويعرفه " لاكتانتيوس " - وهو من رجال
الدين المسيحي في القرن الرابع الميلادي - بأنه الاتصال بالله بواسطة الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد
إلى خالقه. "

ومن هنا أطلق الدين عند الكاثوليك وأريد به علاقة الإنسان بالإله ، الحى ، الذى أنزل وحيأ ،
وأوصى بإقامة كنيسة لحفظ هذا الوحي ، ولهذا فالدين عندهم يتمركز في المؤسسة الدينية :

الكنيسة :

- ومن يتولون مناصبها (رجال الدين) ،
- وقوانينها ،
- وأنظمتها ،
- وطقوسها ،
- وأسرارها المقدسة ،
- وانفرادها بالتبجيل والاحترام ،
- والخضوع لها خضوعاً كلياً .

لعاليم الإسلام وروحه ؛ ألم يقرءوا ماروى عن قيصة بن مخارق الحلالى ، في رواية مسلم ، وأبي داوود ، والنسائى ، قال: تحملت حمالة
(أى دئناً في سبيل عمل إنسان) فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسأله فيها ، فقال : " أقم عندنا حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك
بها " ، ثم قال : " يا قيصة ! إن المسألة (أى السؤال) لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة (أى دئناً في سبيل مصلحة عامة)
فحللت له المسألة حتى يصيبها (أى حتى يحصل على ماتحمل) ، ثم يمك (أى عن السؤال) . ورجل أصابته جانحة (أى آفة أو حادث)
اجتاحته ماله (أى أتت على ماله) ، فحللت له المسألة حتى يصيب قِوَاماً من عيش - أو قال : سدّاداً من عيش - (أى
حتى ينال ما يستطيع أن يباشر به العمل في سبيل العيش) . ورجل أصابته فاقة (أى فُقر بعد غنى حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجج من
قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحللت له المسألة حتى يصيب قِوَاماً ، أو سدّاداً من عيش . فما سواهن من المسألة - ياقبيصة - سحتاً ،
ياكلها صاحبها سحتاً " .

Glaserapp : Die nichtchristlichen Religionen S . 11 * قارن 26

إلا أن مفهوم الدين عند الذين توردوا عليها - وهم البروتستانت أو الإنجيليون - يخالف تصور الكاثوليك ، فهم لا يعترفون بالسلطة المطلقة للكنيسة ، ولا يقرون بانفراد " البابا " بتفسير الكتاب المقدس ، وشرح العقيدة ، ولا يعترفون بعصمته .

كذلك عبرت كلمة " الدين " في اللغات الأخرى عن تصور المتحدثين بها لمفهوم هذه الكلمة ؛ فالدين عند الصينيين : " Chiao " الشريعة. وعند الهنود : " Dharma " النظام الثابت. وعند الجرمان : مبدأ الكون ، أو القانون الإلهي ، أو النظام الإلهي .

ومن هذا العرض الموجز يتبين للباحث أن تعريف الدين - لغوياً - تعريفاً عاماً وشاملاً ، غير ممكن ؛ لأن تصوره لدى الإنسان خاضع للعصر ، والبيئة ، والثقافة ، وهي مختلفة كل الاختلاف بين الشعوب والجماعات الإنسانية .

إذا كان استعمال كلمة " الدين " خاضعاً للعصر والبيئة ، وهما من العناصر الأساسية في تكوين ثقافة الإنسان ، وبناء الصور الفكرية في المجتمعات البشرية ، فمما لا شك فيه أن مفهوم الدين لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي له ؛ لأن اللغة هي تعبير عن المعنى المفهوم من قنوات المعرفة المتاحة للمُعَرَّف. ولما كانت هذه القنوات مختلفة ومتشعبة ، فمن اللازم أن يكون تعريف الدين أيضاً مختلفاً من بيئة لأخرى ؛ إذ هو انعكاس لما بين الشعوب والأقوام من عناصر الاتفاق والاختلاف. والدليل على ذلك ما نراه من كثرة التعاريف التي قيلت ، تفسيراً وتحديداً لكلمة " الدين " ؛ إذ بينما يعرفه علماء المسلمين بأنه : " وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة - باختيارهم - إلى ما فيه صلاحهم في الحال ، ونجاحهم في المال "

يذهب الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى تحديده بتعريفات لاحصر لها ، فيقولون إنه :

- " الرباط الذي يصل الإنسان بالله ."
- " نظام أو مجموعة من الحقائق العامة ، لها تأثير في تكييف الخلق ، إذا صدق الاعتقاد بها وفُهِمَت فهما واضحا وقويا ."
- " مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة)، اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى : " الملة ."
- " توجيه الإنسان سلوكه ، وفقا لشعوره ، بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه ، وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها ."

- "جملة من العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفي حق أنفسنا ."

- "التزلف والتقرب إلى القوى العليا التي تفوق الإنسان ، والتي يُعتَقَد أنها تُوجِّه سير الطبيعة ، والحياة البشرية ، وتتحكم فيهما " .²⁷

وغير ذلك من التعريفات التي تعددت بتعدد الصور الفكرية ، والأنماط الثقافية في المجتمعات البشرية، بل إن تعريف الدين داخل المجتمع الذي يؤمن بعقيدة واحدة يختلف من عصر لآخر ، لو تغيرت مظاهر المجتمع ، وذلك بأن يدخل عليها عنصر لم يكن موجوداً من قبل ؛ إذ نجد أن التغير غالباً ما يكون سبباً في تغيير مفهوم الدين ، والدليل على ذلك ما حدث في المجتمع الإسلامي ، إذ عندما بُعِد في العصر الحديث عن القانون الإسلامي ، فطبق قوانين بشرية - لم ، ولن تبلغ درجة الكمال - ميزت طبقة وأفراداً عن غيرهم ، انعكس رد الفعل في تعريف الدين ، حيث أشار العلماء فيه إلى أن الله هو الكمال المطلق ، وما يصدر عنه كامل ، واتباع هذا الكمال - وهو الدين - يرفع من المجتمع سلبيات القانون البشري من تأثر واضعه بالبيئة، وتحيزه لفريق دون آخر ... و.... و.... إلخ.

فترى أحد العلماء في هذا العصر ، يعرف الدين ، فيقول : " إن الدين هو : ما كان لله ، وما كان من عند الله ومفهوم الله ليس شخصاً وُجِدَ في زمن دون زمن ، وتأثر بيئته دون أخرى ... إنما مفهوم الله حقيقة أبدية خالدة ، ترتفع فوق المستويات ، وتجرد عما للكائنات جميعها من صفات ، هو الكمال المطلق في ذاته ، وصفاته ، جل شأنه سبحانه وتعالى ، يقصر عقل الإنسان عن أن يحدها على نحو ما هي عليه ، وأن يصل إلى تصويرها في تعبيره وفي شرحه إلى واقع أمرها .

هذه الحقيقة الأبدية الخالدة وهذا الكمال المطلق ، هو الذي نُسِب إليه الدين ، يوحى به إلى من اصطفاها ، ويكلفه بتبليغه إلى الناس ، والدين بعد ذلك هو : ما أنزل من عند الله للناس جميعاً ، وما طُلب من الرسول إبلاغه إليهم ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وإذا كان الدين هو المنزل من عند الله ، الحقيقة الخالدة ، الكاملة كمالاً مطلقاً ، فلا يكون إلا صورة من صور هذا الكمال ، لا يشوبها نقص ، ولا يعتريها باطل ، ولا ينفذ إليها غرض ، يميز فريقاً عن فريق ، ويفصل بين جيل وجيل .

²⁷ (انظر : دراز : الدين : ص ٢٩ - ٣٠ ، فريزر : العنصر الذهبي : ص ٣١٧ ، إقبال : تجديد الفكر الديني ص ٦

وإذا كان من مفهوم الدين أيضاً : أنه ما يجب اتباعه بعد الإيمان ، وتجب الطاعة له بعد التمسك به - وكان قبل ذلك صورة من كمال الله جل شأنه - ، فاتباعه ، والسير على هدايه يحقق حتماً الاستقامة : في سلوك الإنسان المُتَّبِع ، المؤمن به وفي تفكيره ، وفي وجدانه ، وفي صلواته مع الآخرين ؛ لأنه يستحيل أن يؤدي الكمال إلى نقص ، كما يستحيل أن يستتبع الحق باطلاً .²⁸

وخلاصة القول أن التعريف الاصطلاحي للدين هو: ترجمة للاستعمال اللغوي للكلمة، داخل إطار الثقافة ، والعصر ، بما فيه من تصورات فكرية ، مكتسبة من العقيدة السائدة في المجتمع .

هل يجوز أن نطلق على كل عقيدة - أياً كان مصدرها ، وعلى وضع كان

مضمونها - ديناً ؟

وهل يصح أن نسمى العقيدة البدائية ديناً ؟

وهل يمكن أن تندرج عقائد الجاهلية - قبل الإسلام في مكة - تحت اسم الدين ؟

اختلف الباحثون في هذا ؛ فقال بعضهم : لا يسمى ديناً إلا ما نزل به وحى من السماء ، كالإسلام ، واليهودية ، والنصرانية . وقال آخرون : ليس هناك دين سوى الإسلام ، بدليل قوله تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩]

بينما ذهب المحققون إلى أن كل عقيدة تتضمن الإيمان فهي دين ، حتى عقيدة ما يطلق عليهم لفظ

" الكفار " ، بدليل قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون :

[٦-١]

وقوله :

" وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " . [آل عمران : ٨٥] .

²⁸ (البهي : الدين والحضارة الإنسانية : ص ٧٤ .

فـ "الغيرية" هنا تشمل ما عدا الإسلام ، سواء كان ديناً سماوياً أو غير سماوى ، وسواء كان يتضمن الأمر بالاعتقاد في إله واحد ، أو يشتمل على آلهة متعددة .

أما ما استدل به القائلون بأن كلمة "الدين" لا تُطَلَق إلا على الإسلام وهو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

فإن المراد به : أن الدين الحق ، أو الدين الكامل ، الذى لم يدخله تحريف ، ولا تدليل إنما هو

(الإسلام) ، وما عداه من العقائد التى تشتمل على قوة غيبية ، فَيُطَلَق عليه "دين" ، ولكنه ليس ديناً

صحيحاً - من وجهة النظر الإسلامية - ، لأنه باشماله على الإيمان بقوة غيبية أصبح مندرجاً تحت اسم "الدين" العام .

قد يقال : إن عبادة الأصنام لا تشتمل على قوة غيبية ، لأن الوثنيين يصنعون الحجر بأيديهم ، ثم

يعبدونه ، **فأين الاعتقاد بقوة غيبية فى هذا الدين ؟**

يجب على الدارسين لعلم الأديان أن يضعوا نصب أعينهم ، بادئ ذى بدء ، أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض يعبد صوراً مادية لذاكها ، وإنما لاعتقاده أن روحاً حلت فيها ؛ إذ لا يعقل أن يأخذ الإنسان حجراً ويشطره نصفين ، يصنع من نصفه الأول إلهه ، يقادسه ، ويخافه ، ويخشاه ويتقرب منه ... بينما يستعمل النصف الآخر فى أماكن قضاء حاجته ، إلا إذا كان هناك عقيدة تُصَوِّر له أن ماصع على هيئة الصورة الإلهية التى فى ذهنه قد حلت فيه روح هذا الإله ، فهو يعتقد أن الحجر بمجرد تشكيله على هذه الصورة ، تحل فيه الروح المعبودة ، وقد أجمع على هذا التفسير جميع الباحثين فى نفسية المتدينين وعقلياتهم .

فقد اتفقوا "على أنه ليس هناك دين - أياً كانت منزلته من الضلال والخرافة - وقف عند ظاهر الحس ، وأتخذت المادة المشاهدة معبودة لذاكها ، وأنه ليس أحد من عبّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى فى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم . وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون أن هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية ، أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهى فى نظرهم أشبه شئى بالتمائم والتعوذات التى يتفائل ، أو يتبرك بها ، أو يستدفع بها شئى من الحسد أو السحر" ، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار فى

²⁹ (لايزال الخلط بين الأفكار ، أو المزج بين الدين والسحر يظهر فى أشكال مختلفة بين الطبقات الجاهلة فى أوروبا الحديثة . ويقال إن معظم

الفلاحين فى فرنسا لايزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم ، وأنه حين يتلو بعض الصلوات المعية بالذات

الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها ، أو حولها روحاً عقلاً ، مدبراً ، مستقل الإرادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته من سير الأمور ، ويجرى العادات ، فيعطى ويمنع ، ويضر وينفع ، من

التي لا يعرفها سواه ، والتي لا يحق لغيره أن يرتلها ، فإنه يستطيع في حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعالم الفيزيقي ، أو حتى يقلبها تماماً ، ولكن يتعين عليه بعد أداء هذه الصلوات أن يطلب الغفران . فالرياح والعواصف والبرد والمطر تخضع لسلطانه وإرادته ، وكذلك النار . بل إن ألسنة اللهب تخمد بكلمة واحدة منه . ولقد كان الفلاحون الفرنسيون أيضاً يؤمنون ، ولعلمهم لايزالون يؤمنون ، بأن في استطاعة القساوسة أن يقيموا قداس الروح القدس الذي يمارسون فيه بعض الشعائر الخاصة التي تصل فعاليتها حدًا من الإعجاز لا تجدى معه أية معارضة من الإرادة الإلهية ، وإنما يجد الله نفسه مضطراً لأن يعطى كل ما يطلب إليه بهذه الطريقة مهما بلغ الطلب من الإسفاف والمبالغة . ولم يكن الناس يرون في ممارسة هذه الشعائر خروجاً على أصول الدين أو قواعد السلوك ، خاصة وأنهم لم يكونوا يلبأون إليها إلا حين تصل قسوة الحياة عليهم حدًا بالغاً لا يمكن معه إلا هذه الوسيلة الغريبة لنيل ما يريدون من مملكة السماء . ولقد كان القساوسة العاديون يرفضون في العادة أداء قداس روح القدس بعكس الرهبان الذين كانوا يستجيبون بدون كثير من الحرج لنصرة المهومين والمأزومين . ونستطيع أن نجد شيئاً قوياً جداً بين هذا الضغط الذي يعتقد الفلاحون الكاثوليك أن القساوسة يمارسونه على الله وبين السلطة التي كان المصريون القدماء ينسبون إلى السحرة عندهم . [فريزر ٢٢٤ - ٢٢٥] ولكن على الرغم من امتزاج السحر بالدين بهذه الطريقة في كثير من العصور وكثير من البلاد ، فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الامتزاج ليس بدائياً . وأن الإنسان مر بعصر كان يعتمد فيه على السحر وحده في إشباع تلك الحاجات التي تسمو فوق شهواته الحيوانية المباشرة . والواقع أن دراسة الأفكار الأساسية في السحر والدين تبين في الحقل الأول أن السحر أقدم من الدين في تاريخ الإنسانية . ولقد تبين من الأبحاث في هذا المجال أن السحر من ناحية ليس إلا تطبيقاً خاطئاً لأبسط وأسهل عمليات الفكر ، ونعني بما تدعى الأفكار عن طريق التشابه أو التجاور ، كما أن الدين من الناحية الأخرى يفترض وجود كائنات مدركة واعية وشخصية أسمى من الإنسان وتعمل من وراء ستار الطبيعة الظاهر المرئي . ومن الواضح أن فكرة القوى أو الكائنات الشخصية مسألة أكثر تعقيداً من مجرد إدراك التشابه أو الاتصال بين الأفكار ، كما أن النظرية التي ترى أن أحداث الطبيعة تتحدد بفعل قوى مدركة واعية هي نظرية أكثر عمقاً وعموضاً ، وتتطلب لفهما من الذكاء والقدرة على التفكير درجة أعلى مما يتطلبه الاعتقاد في أن تابع الأحداث ناشئ من تجاورها أو تشابهاً فحسب . فالحيوانات ذاتها تملك القدرة على الربط بين الأفكار المتعلقة بالأشياء المشاهدة أو الأشياء التي اعتادت أن تراها معاً ، ولو عجزت عن ذلك لما استطاعت أن تعيش يوماً واحداً . ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الحيوانات تعتقد أن ظواهر الطبيعة تحدث نتيجة لدخول عدد كبير من الحيوانات اللامرئية أو بفعل حيوان واحد ضخم له قوة هائلة تخفى وراء هذه الظواهر . ولن نبخس هذه الحيوانات قدرها إذا قصرنا شرف إقامة مثل هذه النظرية الأخيرة على العقل البشري وحده . وعلى ذلك فإذا كان من اليسور الاستدلال على السحر من عمليات التفكير الأولية مباشرة ، وإذا كان السحر - كما هو = الأمر الواقع - نوعاً من الخطأ الذي يقع فيه العقل بشكل تلقائي تقريباً ، بينما يركز الدين على أفكار لا يمكن الزعم بأن الذكاء الحيواني توصل إليها ، فإنه يصبح من المحتمل أن يكون السحر أسبق في الظهور على الدين في تطور الجنس البشري ، وأن الإنسان عمد إلى إخضاع الطبيعة لرغباته باستخدام التعاويذ والطلاسم وحدها قبل أن يعمل على التقرب من الإله الحى الخجول المتقلب الغضوب ، ومحاولة استرضائه عن طريق السلوك الهادئ الدقيق الذي يمثل في الصلاة وتقديم القرابين . [المصدر السابق ٢٢٧ - ٢٢٩]

حيث لا ينتظر الناس ذلك في العادة ، وأن تلك المواد المُشاهدَة ، ماهي إلا مظهر ، ومطلع يطل منه هذا الروح الخفي ، وبارك من يتمسح بذلك الهياكل التي اتخذها له مظهرها " 30
من الألفاظ التي شاع استعمالها في مجال الفكر الديني : الملة ، والنحلة :

فما معناهما ؟ أيجوز إطلاقهما على كل عقيدة دينية؟ أم أن لكل منهما مجالاً

خاصاً ، وعقائد معينة؟

تُطلق الملة ، ويراد بها - كما جاء في معاجم اللغة - الشريعة ، أو الدين ، كملة الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية. ومعنى هذا أن الملل - وهي جمع : ملة - تُطلق على الأديان المترلة ، يقول الراغب الأصفهاني : الملة كالدين ، وهو اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله.... أو هي كما يقول الفارابي : " آراء وأفعال ، مقدرة مقيدة بشرائط ، يرسمها للجميع رئيسهم الأول ، يلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضاً له- فيهم ، أو بهم - محدوداً " . والفرق بينها وبين الدين ، أن الملة لا تضاف إلا للنبي ﷺ الذي تُسند إليه ، نحو قوله تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء : ١٢٥]

وقوله :

"وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي" [يوسف : ٣٨]

ولا تضاف إلى الله ، ولا إلى آحاد الناس ، كما تُستعمل في جملة الشرائع دون آحادها، فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتي ، وملة زيد ، كما يقال: دين الله ، ودين زيد . كذلك لا يقال : الصلاة ملة الله. أما النحلة - وتجمع على نحل - فأصلها اللغوي من الانتحال ، يقال: انتحل فلان شعر غيره ، أو قول غيره ، إذا ادعاه لنفسه. وتَنَحَّلَه : ادعاه وهو لغيره ، وواضح أن مدلول الكلمة يشير إلى الكذب والادعاء الذي ليس له أساس صحيح ، وتلك طبيعة النحل والعقائد التي تنتكر هدايات الله ، وتكفر برسله. وهذا ما اصطُح عليه جمهور المسلمين ؛ إذ قسموا أهل العالم بحسب الآراء والمذاهب إلى أهل الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، فحصرُوا أهل الديانات: في المجوس ، واليهود، والنصارى

30 (دراز : ص ٣٨ - ٣٩ .

والمسلمين ، وأهل الأهواء والنحل : في الفلاسفة ، والدهريين ، والصابئة ، وعبدة الكواكب ، والأوثان ، والبراهمة ، ومن شاہم في العقائد .

ويستدل من هذا ، أن أهل الأهواء ، والنحل يقابلون أهل الدين والملة تقابل التضاد ، ولهذا شاع لفظ " الملل والنحل " بين علماء تاريخ الأديان في المجتمع الإسلامي ، وفهم منه إطلاق لفظ " الملة " على عقيدة من له كتاب سماوي ، أو شبه كتاب ، ولفظ " النحلة " على الدهريين وأشباههم . وهو اصطلاح - في استعمال الكلمتين - ليس صحيحاً ؛ إذ جاء في القرآن الكريم إطلاق لفظ " الملة " على المؤمنين بالله ، وعلى الدهريين أيضاً ، يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ لَا يَا بَنِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا بَأْتَانِيهِ كَمَا بَأْتَاؤُوبَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ ذَلِكَ كَمَا مَعَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِي تَرَكْتُم مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَأَنْجَعْتُم مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ - ٣٨]

أما لفظ النحلة فلم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة ، في قوله تعالى :

﴿ وَأَتُوا النَّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ بِنَحْلَةٍ ﴾ [النساء : ٤]

وفسره بعضهم بـ " ديانة " ، كما تقول : فلان ينتحل كذا وكذا ، أي يدين به . وقيل لنحلة ، أي ديناً وتديناً ، فهي على هذا التفسير مرادفة لكلمة " دين " التي تطلق على كل عقيدة ، سواء كانت صحيحة أم باطلة .

كذلك تحدث ابن حزم في كتابه " الفصل " عن ملة الحق ، ونحلة الحق ، مما يوحي بأن الملة والنحلة تطلقان - في رأيه - على ماهو حق ، وما هو باطل ، مثلما في ذلك مثل كلمة " دين " ، فهو يقول : " قد أكملنا - والحمد لله كثيراً - الكلام على الملل المخالفة لدين الإسلام ، الذي هو دين الله تعالى على عباده ، الذي لا دين له في الأرض إلى يوم القيامة ... ثم على صحة النبوات ، ثم على صحة نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن ملته هي الحق ، وكل ملة سواها باطل ، وأنه آخر الأنبياء ، وملته آخر الملل ، فلنبدأ الآن بعون الله وتأييده في ذكر نحل المسلمين ، واقتراحهم فيها ، وبيان الحق في كل ، وبالله نستعين " ٣١

ثم يقول في الصفحة التالية مؤكدا هذا المعنى : " إذ قد أكملنا بعون الله الكلام في الملل، فلنبدا بعون الله عز وجل في ذكر نحل أهل الإسلام ، وافتراقهم فيها ، وإيراد ماشغب به من شغب منهم فيما غلط فيه من نحلته ، وإيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل كما فعلنا في الملل " "

والذى يبدو لنا من خلال هذين النصين أن الملل والأديان كلها باطلة ، إلا ملة الإسلام الذى لادين فى الأرض غيره إلى يوم القيامة ، كما أن النحل - ويقصد بها ابن حزم : الفرق - منها ماهو حق ، ومنها ما هو باطل ، ويرى أن الحق فيها إنما هو ماذهب إليه أهل السنة ، الذين يطلق عليهم : أهل الحق ، وما عداهم ، فهو صاحب بدعة وضلالة .

ويتضح من هذا أن الكلمات الثلاث : دين ، ملة ، نحلة - فى رأى بعض المفسرين وعلماء تاريخ الأديان - مترادفة ، ويفرق بين الدين الصحيح ، والدين الباطل ، بالقيء ، فيقال : ملة صحيحة ، وملة باطلة. كما يقال : دين صحيح ، ودين محرف ، أو باطل

³² المصدر السابق ١٠٦